

أسلوب الاستفهام . نماذج قرآنية
من منظور تداولي

✍ د. عزالدين علي مختار علي

المستخلص:

تتنزّل أهمية هذا البحث في محاولته مقارنة أسلوب الاستفهام مقارنة تداوليّة منفتحة على ثلاثة أبعاد: البعد التركيبي والبعد التداولي والبعد الدلالي. من دوافع اختيار هذا الموضوع: الدّراسة القاصرة له، دون الجمع بين هذه الأبعاد الثلاثة. يسعى هذا البحث إلى تحقيق أهداف منها: تقديم مقارنة للاستفهام تحاول أن تكون شاملة محيطية ما أمكن، كما تحاول أن تكون تحليلية تشرّحية. أمّا المنهج المتّبع في الدّراسة فهو المنهج الوصفيّ التحليلي القائم على وصف البنى الاستفهامية، وتحليل تجلياتها المنجزة في المقام المخصوص، مع الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف يشتغل الاستفهام على أداء الأعمال اللّغويّة؟ وأين المعنى والسّياق من أسلوب الاستفهام والمستفهم والمستفهم وما يحيط بهما من الظروف الحافّة؟ وما الشّروط التي تجعل الاستفهام يخرج إلى معانٍ أخرى؟. كذلك خلص البحث إلى نتائج منها أنّ الاستفهام أسلوب حجاجي إقناعي بامتياز.

Abstract:

The significance of this research lies in its attempt to approach the style of interrogation (Al-Istifham) from a pragmatic perspective that is open to three dimensions: the syntactic dimension, the pragmatic dimension, and the semantic dimension. Among the motives for choosing this topic is the inadequacy of previous studies that failed to integrate these three dimensions. The research aims to achieve several objectives, including presenting an approach to interrogation that is as comprehensive and encompassing as possible, while also being analytical and dissecting. The methodology adopted in this study is the descriptive-analytical approach, which is based on describing the interrogative structures and analyzing their realized manifestations in the specific context, while addressing

the following questions: How does interrogation function in performing speech acts? Where do meaning and context stand regarding the style of interrogation, the questioner, the respondent, and the surrounding circumstances? What are the conditions that cause interrogation to convey other secondary meanings? Finally, the research concluded with several findings, most notably that interrogation is par excellence a persuasive argumentative style.

مقدمة:

تكمن أهمية هذا البحث في دراسته أسلوب الاستفهام من منظور تداوليٍّ أهمل النظر إليه منه، محاولاً سبر أغواره بالوقوف على الأسس التي يقوم عليها هذا الأسلوب حين يشرب بالأعمال اللغوية، ومن دواعي مقارنة أسلوب الاستفهام من المنظور التداوليٍّ إهمال تطبيق مقولات هذا المنظور عليه، مع صلاحيته لتلك المقاربة. يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الدوافع التي تقف وراء استخدام المرسل مثل هذا الأسلوب الذي لا يقف عند المعاني الأول بل يتجاوزها إلى معانٍ ثوانٍ هي المقصودة أصلاً، كذلك يتغيأ التعرف على الغايات التي يرمي إليها المتكلم من استخدامه. ولتحقيق كل هذه الأهداف، ينطلق البحث في دراسة أسلوب الاستفهام من منظور تداوليٍّ يفتح على المحيط الحافِّ بنمط الاستفهام بمعطياته المكتنفة له كافة: من متكلم ومخاطب وما بينهما من علاقة، ومن سياق مكانيٍّ وزمانيٍّ، ومن أغراض تواصلية ومن تحلي صيغة الاستفهام على وجه مخصوص. اختار البحث لدراسة أسلوب الاستفهام المنهج الوصفي التحليلي المستند إلى ثلاثة أبعاد: البعد التركيبي والتداولي والدلالي.

توطئة:

من البدهي القول بأن للمعنى أهمية قصوى من وراء الكلام؛ لأنَّ كلَّ كلام لابد أن يرمي

المتكلم به إلى توصيل معنى ما إلى مخاطبه، أضف أن هذه المعاني المخدومة بالكلام تصنّف إلى صنفين كبيرين: المعاني الأول وهو مستوى نفعي، والمعاني الثواني التي وراء المعاني الأول وهذا مستوى بلاغي بامتياز. فاعلم " أنّ للنحو دلالات مجردة هي معانيه وأحكامه، وأنها معانٍ أول تنجز في المقام المخصوص، فيتولّد منها معانٍ ثوانٍ اقتضاها ذلك المقام المخصوص؛ فالمعاني الأول لفظية مقالية، والثواني نحوية سياقية مقامية مقالية أو بلاغية"⁽¹⁾ فلا شكّ أنّ المتلقّي تقع عليه مسؤولية الكشف عن المعنى القابع وراء الكلام، وأنّ المتكلم يعدّ المسؤول الأول عن الإعراب عن أفكاره، فمهمّة المتكلم الإنتاج، ومهمّة المتلقّي التأويل. وهذا التّواصل اللّغويّ بينهما ينمّ عن أهميّة المعنى الذي تحلّل التّراكيب اللّغويّة بغية التّوصّل إليه فهو محور مهم في الدّرس اللّغويّ والأدبي بل هو الذي يقتضي أن يأتي الكلام على وجه دون وجه، فلا ريب في "أنّ ما يوجد في قول ما من خصائص تركيبية . دلالية تمثل دليلاً على افتراضات مقامية تخاطبية، استوجبت أن تكون البنية اللفظية المعنوية على هذه الصّورة أو تلك. وهو ضرب من اكتناه القول للخصائص الأساسية التي يفرضها المقام، وضرب من تهيؤ أساليب بناء القول لغويّاً لاستيعاب ما تقتضيه المقامات المتنوعة ومكوناتها الدنيا من متخاطبين وحيثيات للتخاطب والكون الذهني والخارجي"⁽²⁾

والتّداوليّة كغيرها من المقاربات المعاصرة يحتل المعنى في جهازها النظري والإجرائي المركز الأول من انشغالاتها البحثية فهي تحاول الإحاطة الشاملة بكل تقنياته التي تفرزه وحيثياته التي تكتنفه لا سيما قصد المتكلم الذي يروم من تلفظه بالكلام، وحال المخاطب والعلاقة القائمة بينهما، والسياق المكاني والزماني الذي يكتنف الخطاب الحادث بينهما. " وهذا من شأنه أن يدفعنا بدوره إلى النظر في سائر العملية التّواصلية ... بحيث يتحول درس الوجوه

(1) خالد ميلاد "الإنشاء في العربية بين التّركيب والدّلالة" المؤسسة العربية للتّوزيع، تونس، ط1، 2001م، ص389

(2) شكري المبخوت "الاستدلال البلاغي" دار المعرفة، تونس، ط1، 2006م، ص25

البلاغية من حيث هي قائمة على مبدأ الأنفعية إلى درس تداولي قوامه معرفة من يخاطب من؟ وفيم؟ وخاصّة لماذا؟ يضاف إليها السؤال الأقرب إلى روح الخطاب البليغ وهو كيف كان هذا الخطاب مقنعاً⁽¹⁾

أ/ مفهوم الإنشاء:

لأنّ الاستفهام أحد أنواع الإنشاء، لا يمكنني منهجياً تناوله دون التعريف بمصطلح الإنشاء، الذي لم ينشغل به البلاغيون والنحاة وحدهم، بل شاركهم الأصوليون والفقهاء والفلاسفة. وقد تباينت آراؤهم جميعاً في المعايير التي حاولوا بها التمييز بين الخبر والإنشاء، والتي من أهمها معيار احتمال الصدق والكذب بالنسبة للخبر، وعدم احتمالهما بالنسبة للإنشاء. كما اختلفوا قبلاً في تقسيم الكلام بين تقسيم ثلاثي يشمل: الخبر والطلب والإنشاء، وتقسيم ثنائي ينحصر في الخبر والإنشاء. فهذا ابن هشام بعد أن اعتمد التقسيم الثلاثي ها هو ذا يرجع عنه، ويختار التقسيم الثنائي قائلاً: "وهذا التقسيم تبعت فيه بعضهم والتحقيق خلافه، وأن الكلام ينقسم إلى خبر وإنشاء فقط، وأن الطلب من أقسام الإنشاء.... ولما اختصّ هذا النوع بأن إيجاد لفظه إيجاد لمعناه سمي إنشاء قال الله تعالى: "إنّا أنشأناهم إنشاءً" أي: أوجدناهم إيجاداً⁽²⁾

ويبدو أنّ السكاكي أهمل مصطلح الإنشاء إذ جعل الطلب بدلاً منه وصيقاً للخبر مقتصرًا على الذي يعرف بالإنشاء الطلبي في مقابل الإنشاء غير الطلبي الذي أهمله كذلك، وكأنّه لا يعدّه وأنواعه ممّا يدخل في باب البلاغة، ولا في باب علم المعاني خاصّة. وهو يرى: "أنّ الطلب يستدعي مطلوبًا لا محالة ويستدعي فيما هو مطلوبه ألا يكون حاصلًا وقت الطلب، والطلب إذا تأملت نوعان: نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول، ونوع

(2) عبد الله صولة "في نظرية الحجاج" مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص100

(2) ابن هشام "شرح شذور الذهب" مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، د.ط، 1961، ص22

يستدعي إمكان الحصول⁽¹⁾ فالصَّنْف الأول يندرج تحته التَّمَنِّي والصَّنْف الثاني يشمل: الاستفهام والأمر والتَّهْيِي والتَّذَاء.

ثم يفرّق بين أنواع الصَّنْف الثَّانِي من الطَّلَب على هذا التَّحْو: "والفرق بين الطَّلَب في الاستفهام وبين الطَّلَب في الأمر والتَّهْيِي والتَّذَاء واضح فإنّك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل لك في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق فنقش الذهن في الأول تابع وفي الثاني متبوع"⁽²⁾

حسبما فهمت، فإن السكاكي قد ميز بين أنواع الطَّلَب في أن النسبة الذهنية اللغويّة في الاستفهام تابعة للنسبة الخارجية المستفهم عنها بينما هي متبوعة في بقية أنواع الطَّلَب بالنسبة للنسبة الخارجية التابعة في حين أن هناك من ينزل هذا التمييز بين الخبر والإنشاء من حيث إنّ الخارج في الخبر سابق عليه، وحينئذ فالخبر تابع والخارج متبوع؛ لأنّ الخبر يأتي واصفًا ومصوّرًا لما حدث في الخارج أو لما لم يحدث. وإنّ الخارج في الإنشاء لاحق له، وعليه فإنّ الخارج تابع والإنشاء متبوع؛ لأنّ الإنشاء هو الذي به نوقع ما في الخارج.

ويختار القزويني الإنشاء ويقبّضه على النحو الآتي " | الإنشاء ضربان: طلب وغير طلب. والطلب يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطَّلَب لامتناع تحصيل الحاصل"⁽³⁾

وعند التفتازاني "الإنشاء قد يقال على الكلام الذي ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه وقد يقال على فعل المتكلّم أعني: إلقاء الكلام الإنشائي كالإخبار"⁽⁴⁾ وعند الهاشمي "الإنشاء لغة: الإيجاد واصطلاحًا: ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته نحو:

(1) السكاكي "مفتاح العلوم" دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2011م، ص414

(2) المصدر السابق، ص414

(1) القزويني "الإيضاح في علوم البلاغة" دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2010م، ص108

(2) التفتازاني "المطول" دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م، ص406. ينظر التعريفات، ص3232

اغفر وارحم فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب وإن شئت فقل في تعريف الإنشاء: ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تَلَقَّظت به⁽¹⁾

والإنشاء عند هارون "ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، ولا يصح أن يقال لقائله إنّه صادق أو كاذب لعدم تحقق مدلوله في الخارج وتوقفه على النطق به"⁽²⁾

وهو عند صحراوي "الخطاب التّواصلي المكتمل إفادياً والذي يريد المتكلّم من نسبته الكلامية أن تُوجد نسبته الخارجية"⁽³⁾

يلاحظ على هذه التعاريف سيادة مصطلح الإنشاء، وتعدّد معايير تمييزه فمما ذكر منها: نفي خارج عن نسبته، ونفي احتماله الصدق والكذب لذاته، وتوقف مدلوله على النطق به، على أنّ المعيارين الأول والثاني نستبين منهما أنّ الإنشاء قد عرّف بضده ومقابله وهو الخبر الذي يصدق عليه إثبات المعيارين اللذين نفيا عن الإنشاء. وأما المعيار الثالث فيصدق على الإنشاء الإيقاعي تحديداً الذي اشتهر بالإنشاء غير الطلبي وليس على الإنشاء الطلبي أي لا يصدق على الإنشاء على إطلاقه.

مما تقدم، فإنّي أرى ألا يعرف الإنشاء هكذا على إطلاقه وإنما أن يخص كل من نوعي الإنشاء بتعريف معين ليكون مانعاً جامعاً. فالإنشاء الطلبي: هو الذي تُطلب به أفعال ممكنة الحصول ليست حاصلة وقت الطلب. والإنشاء الإيقاعي أو غير الطلبي هو الذي تنوّل به لإيجاد المعنى والتعبير عنه لفظياً دون أن يفارق اللغة التي أوجدته إلى أن يوجد في الخارج (البوحيات) وذلك في مقابل الخبر باعتباره كلاماً يحكي ما كان في الخارج إلى اللغة. أو هو الذي نوقع به فعلاً ما (أفعال الكلام).

(3) السيد أحمد الهاشمي "جواهر البلاغة" بيروت - لبنان، 2010، ص 69، ص 69

(4) عبد السلام محمد هارون "الأساليب الإنشائية في النحو العربي" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2001م، ص 13

(1) مسعود صحراوي "التداولية عند العرب" دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2005م، ص 82

المبحث النظري

ب/ مفهوم الاستفهام وأركانه:

1/ مفهوم الاستفهام:

لما كانت اللغة أداة للتواصل الإنساني فإنني أرى أن الاستفهام هو أصل هذا التواصل، فقد كان يستخدمه الإنسان الأول ليتعرف العالم وأشياءه من حوله فتأتيه الأجوبة ممن يعلم. ولعل ما يدل على تقدم الاستفهام في الوجود الزمني على الخبر أن الجواب يأتي متأخرًا عنه والجواب خير كما تعلم.

و"الاستفهام والاستعلام والاستخبار بمعنى واحد فالاستفهام: مصدر (استفهمت أي طلبت الفهم وهذه السين تفيد الطلب وكذلك الاستعلام والاستخبار مصدر (استعلمت) و(استخبرت) ولما كان الاستفهام معنى من المعاني لم يكن بد من أدوات تدل عليه إذ الحروف هي الموضوع لإفادة المعاني"⁽¹⁾

ويقول عنه أبو موسى "الهمزة والسين والتاء تفيد معنى الطلب في هذه الكلمة والمطلوب الفهم. والفهم يعني حصول صورة المراد فهمه في النفس وإقامة هيئته في العقل"⁽²⁾ إن الاستفهام "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل وذلك بأداة من إحدى أدواته"⁽³⁾

وهو في تعريف آخر "طلب الفهم وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم

(1) ابن الأثير "المثل السائر" دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص99

(2) د. محمد محمد أبو موسى "دلالات التراكيب" مكتبة وهبة القاهرة، ط2، 1987، ص203 204

(1) السيد أحمد الهاشمي "جواهر البلاغة" بيروت. لبنان، 2010، ص78. 7979

إن المفهوم الوارد في التعاريف السابقة إنما يصدق على الاستفهام من حيث الاصطلاح الذي يكون به المستفهم جاهلاً بما يستفهم عنه لا على الاستفهام الذي يكون به المستفهم عالماً بما يستفهم عنه، وهو ما يعرف في الحقل البلاغي بخروج الاستفهام عن مقتضى ظاهره حيث ينجز به المستفهم أعملاً لغوية يستفاد في تصيدها من القرائن الحافّة به. والاستفهام معنى وظيفي يؤدي بأدوات معينة يتجلّى ذلك من التركيب الإضافي: أدوات الاستفهام بإضافة الأداة إلى المعنى الذي تنجزه. وصيغة الاستفعال تفيد الطلب فطلب الفهم يفيد الاستفهام، وطلب العلم يفيد الاستعلام، وطلب الخبر يفيد الاستخبار. واشتهر من بين هذه المصطلحات مصطلح الاستفهام.

2/ أركان الاستفهام:

إنّ الاستفهام بصيغته الصّرفية هذه يشتمل على أربعة أركان:

1. مستفهم (المتكلم) وهو من يطلب الفهم.
2. مستفهم (المخاطب) هو المطلوب منه الفهم.
3. مستفهم به ونعني به إحدى أدوات الاستفهام.
4. مستفهم عنه وهو الشيء الذي تطلب فهمه أو العلم به.

الأمر الذي يحتم على المحلل مراعاة كلّ هذه الأركان حين يزمع في تحليل بنية الاستفهام لا الاقتصار عليها وحدها. وطلب العلم بالشيء المستفهم عنه يعدّ المعنى الحقيقي للاستفهام، ويتحقّق هذا المعنى الأصلي للاستفهام بتوافر شرط مهمّ جداً هو "جهل المتكلم بما يسأل عنه وتقديره علم المخاطب به" (2) ولعلّ القصد من الاستفهام الأصيل "أن تجعل علمك مساوياً

(2) فضل حسن عباس "البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني" دار الفرقان عمان، 1989، ص168

(1) محمد الشاوش "أصول تحليل الخطاب" المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001، ص789/2

لعلم المخاطب⁽¹⁾

ج/ أدوات الاستفهام والمطلوب بها:

1. أدوات الاستفهام:

تبلغ أدوات الاستفهام اثني عشرة أداة وتنقسم بحسب المطلوب بها إلى ثلاثة أقسام:

1. ما يطلب بها التّصوّر والتّصديق وهي الهمزة.
 2. ما يطلب بها التّصديق وحده وهي "هل". وهي الهمزة كلاهما حرف.
 3. ما يطلب بها التّصوّر وحده وهي بقية الأدوات " ما، ومن، ومتى، وأيُّ، وأين، وأيان، وألئى، وكم، وكيف، ولم". وهذه جميعها أسماء.
- والجدول الآتي يفصّل ما يستفهم عنه بكل أداة من هذه الأدوات:

المثال	ما يستفهم عنه بها	الأداة
ما هذا؟ وما لونه؟ ما علي؟	— جنس ما لا يعقل ووصفه — وصف ما يعقل	1. ما
من مؤلف هذا الكتاب؟	تعيين العاقل	2 من
متى الرحلة؟	تعيين الزمان	3 متى
أين اللقاء؟	تعيين المكان	4 أين
"أيان مرساها"	تعيين الزمان المستقبل مع الدّلالة على التفخيم	5 أيان

(2) المرجع السابق، ص 787/2

6. أي	ما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما ويكون بحسب ما تضاف إليه	"أي الفريقين أحصى لما لبثوا أمداً"
7. أنى	تعيين الحال والزمان والمكان	"فأتوا حرثكم أنى شئتم" "أنى لك هذا"
8. كم	تعيين العدد المبهم	كم كتاباً تقرأ في العام؟
9. كيف	تعيين الحال	كيف محمد؟
10. لم	تعيين السبب	لم تأخرت؟

2 المطلوب بها:

تبين مما سبق أن المطلوب بأدوات الاستفهام كلها لا يخرج إجمالاً عن أمرين هما: التّصوّر والتّصديق، ولما كان الاستفهام "الطلب الحصول في الذهن. والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكماً بشيء على شيء، أو لا يكون والأول هو التّصديق... والثاني هو التّصوّر"⁽¹⁾

فصل التفتازاني ما أجمله السكاكي من مفهوم كل من هذين المصطلحين فالتّصديق "إدراك وقوع النسبة أو لا وقوعها وهذا معنى الحكم والإسناد وما يجري مجراهما كقولك: (أقام زيد، وأزيد قائم؟) فأنت عالم بأن بينهما نسبة إما بالإيجاب أو بالسلب وتطلب تعيينها. والتّصوّر: إدراك غير النسبة كقولك في طلب تصور المسند إليه: أدبس في الإناء أم غسل؟ فإنك تعلم أن في الإناء شيئاً والمطلوب تعيينه، وفي طلب تصور المسند: أي الخاية دبسك أم في الزق؟ فإنك تعلم أن الدبس محكوم عليه بالكينونة في الخاية أو الزق والمطلوب هو التعيين

(1) السكاكي "المفتاح" ص 415

فالمطلوب في جميع ذلك معلوم بوجه إجمالي ويطلب بالاستفهام تفصيله⁽¹⁾
 "التصوّر: هو إدراك المفرد ويطلب بالاستفهام عن التصوّر إدراك المسند إليه أو إدراك
 المسند لتعيينه ويكون الجواب بتعيين المسؤول عنه"⁽²⁾ "التصديق: هو إدراك النسبة الحكمية
 بين المسند والمسند إليه موجبة كانت أو سالبة"⁽³⁾
 وقد عرّف السامرائي كلاّ منهما تعريفاً ميسراً بالاستناد إلى جواب كل: "والتصوّر: هو ما
 يجاب عنه بالتعيين ... والتصديق هو ما يجاب عنه بـ (نعم) أو (لا)"⁽⁴⁾

د/أبعاد درس الاستفهام:

أرى أن أتناول الاستفهام وفق ثلاثة أبعاد بعد أن عولج معالجة أحادية نحوية مرة، وبلاغية
 مرة ثانية، ونحوية وبلاغية معاً مرة ثالثة، وكل هذه المقاربات جاءت وصفية متشابهة إلى حد
 بعيد في كلّ الدراسات التي اطلّعت عليها. أمّا معالجته تداولياً فقد أهملت إهمالاً كاملاً وهي
 معالجة تستند إلى الانفتاح على المحيط الذي يتنزل فيه أسلوب الاستفهام لطرفي الخطاب:
 المتكلّم والمخاطب، وطبيعة العلاقة القائمة بينهما، وقصدية المتكلّم وحال المخاطب، والسّياق
 بشقيه المكاني والزماني. هذه الأبعاد الثلاثة هي:

1. البعد التركيبي:

لا شك في أنّ النحو هو القانون الذي يؤسس القواعد بغية سلامة التراكيب المفيدة
 من الخطأ، ويحدّد صور الإسناد المتنوعة التي تتساوى فيها الجملة الخبرية والجملة الإنشائية.
 ولما كان الاستفهام تركيباً فقد وضعت له شروطاً تضمن صحة تركيبه. وهذه الشروط نوعان:

(2) التفتازاني "المطول"، ص409

(3) عبدالرحمن حسن جنبكة الميداني "البلاغة العربية" دار القلم، دمشق، ط1، 1996م، ص258

(1) المرجع السابق، ص259. المرجع السابق، ص259

(2) فاضل صالح السامرائي "معاني النحو" شركة العاتك، القاهرة، ط2، 2003م، ص199

1. عام يستوعب أدوات الاستفهام كلها بلا استثناء وهو صدارة الكلام .

2 خاصّ بكل من الهمزة و(هل):

أ/ فمن الشّروط الخاصّة بالهمزة : أن يليها المستفهم عنه مباشرة؛ وذلك لأنها يستفهم بها عن كل عنصر من عناصر الجملة: ركنيها الأساسين المسند والمسند إليه، وقيودها المختلفة المعروفة كما أنها يستفهم بها عن التّصوّر والتّصديق معاً.

ب/ والشّروط الخاص بـ (هل): أنها تخلص الفعل المضارع للدلالة على المستقبل، وأنها يستفهم بها عن التّصديق وحده.

وقد فرق سيبويه بينهما في "أن (هل) ليست بمنزلة ألف الاستفهام؛ لأنك إذا قلت: هل تضرب زيداً؟ فلا يكون أن تدعي أن الضرب واقع، وقد تقول: أتضرب زيداً؟ وأنت تدعي أن الضرب واقع"⁽¹⁾ وكذلك بقوله: "ومما يدلّك أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة (هل) أنك تقول للرجل: أطرباً وأنت تعلم أنه قد طرب لتوبّخه وتقرّره ولا تقول هذا بعد (هل)"⁽²⁾

وهذا الفرق بينهما الذي أشار إليه سيبويه آتٍ لأن (هل) تخلص الفعل المضارع الذي تدخل عليه للمستقبل لذا لا يمكن أن يكون الفعل معها حاصلاً بل هو مطلوب حصوله.

وفي الجدول الآتي تفصيل لما تفتقر به (هل) عن الهمزة:

الرقم	هل	الهمزة
1.	خاصّة بالتّصديق.	عامة للتّصور والتّصديق
2.	خاصّة بالدخول على الجملة المثبتة.	تدخل على الجملتين المثبتة والمنفية
3.	تخصص المضارع بالمستقبل	لا تفعل به ذلك
4.	لا تدخل على: 1. الشرط 2. إنّ	تدخل على جميع ما امتنع دخول

(1) سيبويه "الكتاب" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1988، م3، ص 175/3

(2) المصدر السابق، ص 176/3

3. اسم بعده فعل	(هل) عليه.
5. أنها تقع بعد العاطف	أنها تقع قبل العاطف
6. أنها تقع بعد أم	أنها تقع قبل أم
7. أنها تأتي بمعنى (ما) النافية	أنها لا تأتي بمعنى (ما) النافية
8. أنها تأتي بمعنى (قد)	أنها لا تأتي بمعنى (قد)

2. البعد التداولي:

لكيلا نركز في تحليلنا على البنية التركيبية وحدها، ينبغي الرجوع إلى سياق استعمال البنية التركيبية المعينة إذ كل بنية لا بد من استعمالها في سياق مخصوص يقتضي إيرادها على وجه معين للدلالة على معنى معين. و"الخروج الاستفهام عن معنى السؤال أسباب وأحوال تقتضيه وأغراض ومقاصد ترام به... ويمكن أن نُهتدي في التمييز بالفرق بين السبب والغرض: فالأول يكون حصوله متقدماً والثاني يكون حصوله منشوداً مطلوباً وعلى هذا النحو نعتبر الحالة التي يجب أن يكون فيها المتكلم ليخرج الاستفهام من الاستخبار إلى معنى آخر من قبيل السبب والمعنى المنشود الذي يتم الانتقال إليه من قبيل الغرض"⁽¹⁾

فالاستفهام بنية تركيبية ليست مجردة وإنما تحقّقها ظروف وأطراف ومن أهم أطرافها المستفهم، والمستفهم. وللمستفهم حالان: حال الجهل وحال العلم. الحال الأولى تفرض عليه طلب العلم بما يجهله ممن يعتقد أن لديه علماً بما يستفهم عنه. وعليه فإن الاستفهام الأصيل يحيط به شرطان:

1. أن يكون المستفهم جاهلاً بما يستفهم عنه.
2. أن يكون منتظراً للجواب عن مسأله من المخاطب.

(1) محمد الشاوش "أصول تحليل الخطاب" ص 792/2

أما الحال الثاني فتقتضي خروج الاستفهام عن دلالة الأصيلية والمستفهم هنا لا ينتظر من المخاطب جواباً لامتناع طلب تحصيل الحاصل، ولكنه يقصد ببنية الاستفهام أغراضاً أخرى" والهدف من ذلك أن نعرف كيف تستخدم الجمل لغايات تواصلية... فلكي نتعلم لغة ما علينا ألا نقتصر على تكوين الجمل الصحيحة وفهمها كما لو أنها وحدات لغوية معزولة أنتجت عرضاً وبلا أية غاية، بل علينا أن نعلم أيضاً كيف نستخدم الجمل بطريقة تتلاءم مع غاياتنا التواصلية"⁽¹⁾

واللغة تتيح لنا أن نقول شيئاً ونقصد شيئاً آخر غير الذي اعتادت عليه هذه البنية اللغوية قوله، أو أن نستعوض هذه البنية للتعبير عما نروم بدلاً من البنية الموضوعية أصلاً للتعبير عما نريد. فبنية الاستفهام قد لا نقصد بها دلالتها المعروفة أي طلب العلم بما نجهله، وقد نختارها للتعبير عن معنى آخر له بنية موضوعية في اللغة للتعبير عنه كالتعجب مثلاً الذي له صيغتان هما: (ما أفعله وأفعل به).

ومن هنا فإنني أرى أن ثمة تفاعلاً بين علم البيان وعلم المعاني لاسيما وقد علمت أن الأول يساعدنا في إيراد المعنى الواحد بطرائق مختلفة تتفاوت في البلاغة وفي دلالتها عليه ، وأن الثاني نعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي تعدّ شرطاً جوهرياً في تعريف علم البيان. فبنية الاستفهام الخارجة عن معناها الحرفي . وكذلك غيرها من البنى . يمكن التعبير بها عن مقاصد كثيرة، وقد تشارك غيرها من البنى في التعبير عن معنى واحد وهذا مفهوم علم البيان، ولا بدّ من اعتبار مطابقة مقتضى الحال وهذا مفهوم علم المعاني. ولعلّ الذي جعل هذا التفاعل لازماً بين العلمين هو المعنى تعبيراً عنه أو كشفاً له. "فالاستفهام . مثلاً. وهو معنى نحوي قد يستخدم في مقام مناسب لمعناه الوضعي فيدلّ على الاستخبار وهو معناه الأصلي، وقد يستخدم في مقام لا يناسب ذلك المعنى الأصلي إذ يكون المتكلم عالماً بما

(1) عبد الله صولة "في نظرية الحجاج" ص 110

يستفهم عنه فيفيد التّويخ والتّقرير... ففي الاستخدام الأول طابق لفظ الاستفهام ما اقتضاه من مقام. أما في الاستخدام الثّاني فإن لفظ الاستفهام لم يكن من مقتضى مقام الاستفهام فتولد عن عدم التّناسب بين اللفظ والمقام معنى ثان هو الذي أطلقوا عليه المعنى السياقي البلاغي إذ يستفاد من الاستفهام باعتباره لفظاً ومن قرائن الحال باعتبارها معنى مقامياً منمطاً¹

مما سبق، فإن القصد من النظر إلى الاستفهام من حيث البعد التّداولي هو الإحاطة بكل ما يحفّ به من حيثيات متضمّنة في طرح هذه الأسئلة الآتية: من المستفهم؟ عمّ يستفهم؟ من المستفهم؟ لماذا يستفهم المستفهم؟ أين كان هذا الاستفهام ومتى؟ كيف كانت صياغة هذا الاستفهام؟

مما يعني في ضوء هذه الأسئلة أن الاستفهام كلام صادر من متكلم معين بلفظ معيّن وموجّه إلى مخاطب معين في سياق تواصلٍ معيّن لتحقيق غرض تواصلٍ معيّن؛ الأمر الذي يحيل بدوره على أنّ "التّداوليّة تهمّ بسياق إنتاج الخطاب على اعتبار أنّ استعمال النّسق يفرض النّظر في الظّروف المصاحبة له: من قبيل مقاصد المتخاطبين، ومسافة القرب والبعد الفاصلة بينهما سواء أكانت فيزيائية أو اجتماعية"⁽²⁾، أو هي "علم جديد للتّواصل يدرس الظّواهر اللّغويّة في مجال الاستعمال"⁽³⁾ أو هي "إيجاد القوانين الكلّية للاستعمال اللّغويّ والتّعرّف على القدرات الإنسانية للتّواصل اللّغويّ وتصير التّداوليّة من ثمّ جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللّغوي"⁽⁴⁾

(1) خالد ميلاد "الإنشاء في العربية" ص 402

(2) ختام جواد "التّداوليّة - أصولها واتجاهاتها" دار كنوز المعرفة عمان، ط 1، 2016م، ص 18

(3) مسعود صحراوي "التّداوليّة عند علماء العرب"، ص 16

(1) المرجع السابق، ص 17

3. البعد الدلالي:

أما وقد علمنا أنّ الاستفهام قد يخرج عن المعنى الأصلي الذي هو طلب الفهم إلى الدلالة على معانٍ آخر تستفاد من القرائن فيّ ساعى بالأعمال اللغويّة التي ينجزها الاستفهام المنزاح عن حقيقته، والتي تستقرأ بالاستناد إلى السياق الخارجي ومعطياته كافّة. وإذا كان معنى الاستفهام الأصلي يتحقّق شريطة أن يكون المستفهم جاهلاً بما يستفهم عنه فإنّ خروج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معانٍ آخر لا يتحقّق كذلك إلا بشرط هو أن يكون المستفهم عالماً بما يستفهم عنه مما يفيد أنّ الاستفهام انزياح عن التعبير عن المعاني بالأسلوب المألوف المباشر في التعبير عنها، بل أذهب إلى القول بأنّ الاستفهام انزياح ازدواجي من وجهين:

الأول: أنّه انزياح عن معناه الحقيقي أي طلب الفهم وذلك حين يكون المستفهم عالماً بما يستفهم عنه.

الثاني: أنّه انزياح عن الأسلوب المعهود في التعبير عن هذه المعاني التي انزاح إليها. كذلك فات الباحثين المنشغلين بتعداد المعاني التي يخرج إليها الاستفهام أنّ هذه المعاني منها ما يتوجّه بها المتكلّم إلى نفسه، ومنها ما يتوجّه بها إلى مخاطبه فهي ليست كلها مستهدفاً بها المخاطب كالتعجب مثلاً فهو معنى لا يمكن بحال أن يكون متوجّهاً به إلى المخاطب، بل هو معنى ينشئه المتكلّم ليبوح به عن هذا الانفعال وهنا يغدو الاستفهام أقرب إلى أن يكون إنشأً غير طلبي يُوقع به المتكلّم شعور التعجب الذي خالجه نتيجة فعل يستدعي هذا الشعور. ومن هنا أرى أن الاستفهام من جهة أخرى يمكن تقسيمه إلى نوعين:

1. استفهام حقيقي يندرج تحت الإنشاء الطلبي وذلك حين يكون المستفهم جاهلاً بما يستفهم عنه.

2. استفهام غير حقيقي يندرج تحت الإنشاء غير الطلبي وذلك حين يكون المستفهم عالماً

بما يستفهم عنه. وهذا نفسه أَقْبَمَهُ إلى قسمين بحسب اتجاه الاستفهام، وكل منهما تتولّد عنه معانٍ مخصوصة بحسب القرائن واختلاف المقامات.:

أ/ أحدها يتّجه إلى المخاطب.

ب/ والآخر يعود به المتكلّم إلى نفسه.

وعليه فإن المعاني التي عدّدت للاستفهام هكذا مطلقاً يجب إعادة النّظر فيها مراعاةً - وهو أمر مهم للغاية - لطرفي التّواصل الاستفهامي: المستفهم والمستفهم. فالتّعجّب مثلاً شعور ينشئه المستفهم بأداة الاستفهام يصدر عنه ليعود إليه، ولا يتعدى إلى المخاطب فهو شعور لازم للمتكلّم وليس متعدّياً كالتّعجّب أو التّنفير وغيرهما. علينا التّمييز في هذه المعاني المتعدّدة بين: التي يقصد بها المخاطب، وتلك التي يعبرّ بها المتكلّم عمّا خالجه من شعور، وتلك التي يقصد بها المستفهم عنه.

فمن الباحثين الذين وقفت عليهم: السّكاكي وقد ذكر (12معنى)، والقزويني ذكر ذات العدد، وابن هشام ذكر (8 معان)، وأحمد السيد الهاشمي: (20 معنى) وفضل حسن عباس: (18معنى)، وحبنة: (32معنى)، وعبد السلام محمد هارون: (10معان)، وفاضل صالح السامرائي: (24معنى)، وتمام حسان: (13معنى) وفاضل مصطفى الساقى: (9معان) علماً بأن هناك معاني مشتركة بين هؤلاء الباحثين فحين نكتفي بذكر المعاني التي لم يشتركوا في سردها تتقلّص هذه المعاني إلى اثنين وأربعين من العدد الكلّي البالغ مئة وثمانية وخمسين معنى.

1. فالمعاني التي يتوجه بها المتكلّم إلى نفسه (التّمتّي، والتّعجّب، والفخر، والاستئناس، والتّقرير (بمعنى التحقيق)، والتّجاهل، والمدح أو الذم، والتكثير، والدعاء).

2. المعاني التي يقصد بها المخاطب (التّوبيخ، والأمر، والتّهمك، والتّنبية، والتّعجّب، والوعيد، والتّحقير، والمحاجة، والتّحذير، والتّنفير، والتّشكيك، والتّعليم والإرشاد، والتّبكيك،

والإلزام، والعتاب، والتذكير، والتقرير (بمعنى حمل المخاطب على الإقرار)، والنهي، والعرض، والتحضيض، والترغيب)

3- المعاني التي يتوجه بها إلى المستفهم عنه مثل: (الإنكار الإبطال، والاستبعاد، والاكتفاء، والاستبطاء، والنفي، والتسوية، والتعظيم، والتّهويل، والتأكيد، والتسهيل).
كذلك تجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المعاني لها أدوات مخصوصة تنجز بها وهي: (الأمر، والنهي، والتّمّي، والتّعجب، والنّفي، والعرض، والتّحضيض، والتّكثير، والمدح والذّم، والتّأكيد، والتّحذير)

مما تقدّم، فإنّ المعاني التي يخرج إليها الاستفهام لا يمكن التّوصّل إليها بمجرد تشريح التّركيب المنجز الذي يتضمن الاستفهام أي الاكتفاء بسياق المقال وحده وإنّما لا بد أن يستصحب سياق المقام مما يساعد في التّوصّل إلى المعنى المراد؛ إذ درجت البلاغة المدرسية على ذكر المعاني التي يخرج إليها الاستفهام دون إتباع ذلك بتحليل يستوعب السّياقين: سياق الدّاخل، وسياق الخارج؛ لأنّ " مقتضيات الأحوال التي لا تعدو أن تكون معاني النّحو إنّما هي أحكام النّحو وما يتّصل بها من وجوه وفروق وهي أحكام وأصول وقواعد موجودة في اللّغة متفرّعة عن الدّلالة النّحوية المجرّدة التي لا تكتمل دلالتها المخصوصة إلا بتنزّلها في مقام معين ... فالمقامات والأحوال دلالات مقامية ومعاني النّحو دلالات نحوية مجرّدة. أما الدّلالة المخصوصة المتمثلة في المقاصد والأغراض فهي استخدام لمعاني النّحو فيما يطابقها من المقامات المقتضية لها بحسب تلك الأغراض والمقاصد. والمعاني البلاغية هي معانيّ حاصلة من تفاعل بين الدّلالة المقامية من جهة والدّلالة النّحوية من جهة ثانية" (1)

ومن المؤسف أن هذه البلاغة القاعدية قد انتقلت إلى الحقل الجامعي الذي يجدر به التّحول بها إلى البلاغة الإبداعية التحليلية التي تستند إلى المنطق والحدس والسّياق، ولا تكفي بالقشور من التّعداد والتّقسيم والتّلقين. فقد ذكر صاحب كتاب "جواهر البلاغة". تمثيلاً أنّ معنى الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ هو الوعيد (2). وهذا المعنى - بإنعام النظر- لا يستقيم مع الآية من وجهين:

الأوّل: أنّ الوعيد لا يكون إلا في المستقبل والآية الكريمة تحيل إلى حدث ماضٍ.
والثاني: أنّ المخاطب هو رسولنا عليه الصلاة والسلام لذا لا يقع في تصوّر مسلم أن

(1) خالد ميلاد "الإنشاء في العربية"، ص 404.403

(1) السيد أحمد الهاشمي "جواهر البلاغة"، ص 84

الوعيد موجّه إليه صلى الله عليه وسلم. وعندني أن المعنى المراد من الاستفهام الأول في هذه الآية "ألم تر" هو التقرير أي تقوية ذلك عنده عليه الصلّاة والسّلام وتوكيده وليس بمعنى حمّله على التسليم بالاعتراف بما حلّ بعاده؛ لأنّه لا ينكر ذلك. وأنّ الاستفهام الثاني "كيف فعل ربك بعاد" بمعنى التعجب من فعل الله بعاد.

وعليه "فمعرفة المخاطب بأنّ ما ورد السّؤال عنه معلوم للمتكلّم غير مجهول هي الدليل على أنّه يتغيّا من هذا الأسلوب غرضاً آخر، وهذا بيدي أن تحليل هذه الأساليب واكتشاف معانيها لا يتأتّى في حال فصلها عن الأطراف التي يتداول بينهم هذا الأسلوب لكونها السبيل إلى التّوصّل إلى المعاني التي عبّرت عنها فلولا افتراض أنّ المخاطب يعلم أنّ المتكلّم يعلم ما يسأل عنه لما كان من الممكن أن يفهم أنّ الاستفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى غيره". (1)

من المفيد التأكيد على أن المعاني الثّواني المعبّر عنها بأسلوب الاستفهام من التّعّدّد بحيث لا نستطيع أن نحدّد لكل نمط استفهامي معنى واحداً كما في البلاغة الآلية التي تحاول حصر الأعمال اللّغويّة المعبر عنها بالاستفهام، فليس المقصود بالتّعّدّد ذكر عملٍ لغويٍّ واحدٍ لكل أسلوب من الاستفهام بل المقصود به ذكر جملة من الأعمال اللّغويّة للاستفهام الواحد "ولأنّنا لا نستطيع في كثير من الصّور ضبط معنى الاستفهام في شيء محدّد نلجأ إلى ذكر جملة معاني حول الاستفهام الواحد، فنقول مثلاً في قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ "أنه إنكار وتوبيخ وعتاب وتعجب وهذا التّعّدّد دليل على ما نريد أن نوّكده من أن المعنى الذي يفيد الاستفهام خفيّ وسانح ومتفلّت وأننا نحاول السيطرة عليه بمثل هذه الأوصاف الكثيرة الناقصة التي نتوهم أنّها تحيط به، ولكنها لا تستخرج منه إلا

(2) بان الخفاجي "مراعاة المخاطب في التّحو العربي" دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ص259

بعض إشارات، أولاً تصف منه إلا ما يظهر وترى ذلك كثيراً في الأساليب الثرية والسياقات الحية⁽¹⁾

فمن الأعمال اللغوية المؤداة بالاستفهام: التقرير وهو يأتي بمعنىين "التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت وقد يقال بمعنى حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإجاءته إليه"⁽²⁾ ويعرفه ابن هشام بأنه "حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ويجب أن يليها الشيء الذي تقرره به تقول في التقرير بالفعل "أضربت زيداً؟ وبالفعل: أنت ضربت زيداً؟ وبالمفعول: أزيداً ضربت؟ كما يجب ذلك في المستفهم عنه" ابن هشام الأنصاري⁽³⁾ ويظهر لي أن التقرير حين يأتي بمعنى التحقيق يكون من قبل المتكلم الذي يريد تثبيت المعنى في ذهن المخاطب وتحقيقه مثل قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ "فإن الله أراد تثبيت هذا المعنى في قلب الرسول الكريم وتأكيد في نفسه الشريفة والامتنان عليه بذلك، أي بأن شرح له صدره عليه السلام ولعل التقرير بهذا المعنى تستوجبه ثلاثة شروط:

1. أن يلي همزة الاستفهام النفي.
2. أن تلي همزة الاستفهام جملة اسمية أو فعلية.
3. أن يكون في الأولى الاسم ظاهراً مثل: قوله تعالى "أليس الله بكاف عبده"، أو يكون الاسم/المتكلم فيها ضميراً بارزاً، مثل: قوله تعالى: "ألست بربكم"، ويكون في الثانية الفاعل اسماً ظاهراً، مثل: قوله تعالى: "ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل"، أو يكون هو المتكلم/المستفهم نفسه (ضميراً بارزاً) مثل: قوله تعالى "ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين" فإن فرعون وهو أحد طرفي الحوار قد جاء بفعل مضارع مبدوء بالنون

(1) محمد محمد أبو موسى "دلالات التراكيب" ص 218217

(2) التفتازاني "المطول"، ص 419

(1) ابن هشام "معني اللبيب عن كتب الأعاريب" دار الطلائع، القاهرة، بدون، ص 40

الذي يتضمن ضميراً يرجع إليه فهو يريد تذكير موسى . وهو المخاطب . بهذه التربية وتثبيتها في عقله والامتنان بها عليه .

أما إذا كان التقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار فإن المتكلم يعتمد إلى الإتيان بفعل مسند إلى ضمير من يخاطبه منفصلاً أو متصلاً بغية أن يجيب بالاعتراف بأنه من قام بهذا الفعل، أو أن يجيب بالنفي كما في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ "فإذا قلت: أنت فعلت ذلك؟ كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل ... لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان، وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم "أنت فعلت هذا " وقال هو عليه السلام في الجواب "بل فعله كبيرهم هذا " ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل⁽¹⁾

ويأتي الإنكار عملاً لغوياً ينجز بالاستفهام وهو "إمّا للتوبيخ أي: ما كان ينبغي أن يكون ذلك الأمر الذي كان نحو: أعصيت ربك؟ فإنّ العصيان واقع ففي هذا الاستفهام تقرير بمعنى التثبيت والإنكار بمعنى أنه كان لا ينبغي أن يقع... أولاً: ينبغي أن يكون أي يحدث ويتحقق مضمون ما دخلت عليه الهمزة وذلك في المستقبل نحو: أتعصي ربك؟ بمعنى لا ينبغي أن يتحقق العصيان، أو للتكذيب في الماضي أي لم يكن نحو ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ "أي لم يفعل ذلك أو في المستقبل أي لا يكون نحو ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَكْمُوهًا﴾ "أي أنزلهم تلك الهداية أو الحجة أي: أنزلهم على قبولها ونفسركم على الاهتداء بها والحال أنكم لها كارهون يعني لا يكون هذا الإلزام"⁽²⁾

بإمعان النظر في هذا النص يتجلى أن الإنكار عمل يستوجب أن يلي همزة الاستفهام إثبات، وهو لا يأتي وحده مجرداً؛ لذا يمكن تقسيمه إلى قسمين: إنكار توبيخي وإنكار

(1) عبد الجرجاني "دلائل الإعجاز دار المعرفة، بيروت، ط1، 1994م، ص89

(1) التفتازاني "المطول"، ص423

تكذبي. أما الأول فقد يكون لأمر منكر واقع في الماضي ومعناه: (ما كان ينبغي) أن يكون ذلك الأمر الذي كان، وقد يكون لأمر منكر في المستقبل ومعناه: (لا ينبغي) أن يكون أو يتحقق مضمون ما دخلت عليه الهمزة. وأما الثاني فقد يكون كذلك لأمر منكر في الماضي أي: (لم يكن)، وقد يكون لأمر منكر في المستقبل أي: (لا يكون).

فالإنكار التوبيخي قد يكون لأمر قد وقع بالفعل، ولكنه منكر فيوتخ المخاطب عليه، فمن ذلك قوله تعالى: "أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً" أي ما كان ينبغي أن يحدث ذلك الأمر الذي صدر منك، فهو أمر واقع مقترف وصاحبه ملوم، ويلاحظ أن معنى التوبيخ قد أكد بتعداد نعم ربه الذي كفر به، ثم انظر إلى كثافة الضمائر (التاء، والكاف مرتين) التي تحيل على المخاطب؛ مما يعني أن هذا العمل الإنكاري التوبيخي يتوجه به المتكلم إليه.

"وإن أردت (بتفعل) المستقبل كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تعتمد بالإنكار إلى الفعل نفسه، وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون فمثال الأول :
أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل، وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه، ومثله: أن يطمع طامع في أمر لا يكون، فتجهله في طمعه فتقول: أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على ما يكره؟ أئجد عنده ما تحب وقد فعلت وصنعت؟ وعلى ذلك قوله تعالى ﴿أَنلَزْمَكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ "ومثال الثاني: قولك للرجل يركب الخطر: أخرج في هذا الوقت؟ أتذهب في غير الطريق؟ أغرر بنفسك؟ وقولك للرجل يضيع الحق: أتتسى قديم إحسان فلان؟ أغير صحبته وتتغير عن حالك معه لأن تغير الزمان؟ كما قال: أأترك أن قلت دراهم خالد زيارته

إني إذا للثيم (1)

إذا بدأنا بالفعل وكان الفعل مضارعاً يدلّ على المستقبل فإن الإنكار يتوجه إلى الفعل نفسه. ويحتمل حينئذ أن يكون واحداً من ثلاثة معانٍ حسب السياق:

الأول: أن الفعل لا يكون فأنت تكذب من ادّعى القدرة على هذا الفعل كما في قول في امرئ القيس "أبقتلني والمشرقي مضاجعي" وهنا يزيل الجرجاني توهماً من الدقة بمكان إذ "قد يظن الظان أنه يجوز أن يكون في معنى أنه ليس بالذي يجيء منه أن يقتل مثلي ويتعلق بأنه قال قبل :

يغطّ غطيّط البكرشد خناقه ليقتلني والمرء ليس بقتال

ولكنّه إذا نظر علم أنه لا يجوز وذاك؛ لأنه قال "والمشرقي مضاجعي" فذكر ما يكون منعاً من الفعل، ومحال أن يقول هو ممن لا يجيء منه الفعل ثم يقول: إني أمنعه؛ لأنّ المنع يتصوّر فيمن يجيء منه الفعل ومن يصحّ منه، لا من هو منه محال ومن هو نفسه عنه عاجز (2). فليس المعنى إذن أنه ليس ممن لا يجيء منه الفعل، وأنه محال أن يصدر منه؛ لأنه عاجز عن ذلك تماماً، وإنما المعنى أنه ممن يستطيع القتل، ولكن مع ذلك، لا يستطيع قتلي؛ لأنّ عندي ما يمنعه من ذلك من عُدة هي السبب في إنكاري عليه ذلك الفعل. والمعنى البعيد الذي يرمي إليه امرؤ القيس هو الفخر المستلزم من طبيعة المتحدث عنه القادر على القتل ومع قدرته تلك لا يستطيع قتلي.

والثاني: أنه لا ينبغي أن يكون ولا يجدر أن يحصل؛ لأنّ القيام بالفعل مما يلام عليه صاحبه. فالشاعر يقول: لا يليق ولا يجدر بي أن أترك زيارة خالد بسبب قلة ماله وإذا تركت زيارته بسبب ذلك. فرضاً. إني إذا للثيم؛ لأني لم أكن أزوره لمجرد عطاياه، فأنا أرفع من ذلك

(1) عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص 9

(1) المصدر السابق، ص 93.92

؛لأنّه لا يليق بي ولا أليق به الأمر الذي يشي بأن الشاعر يرفع من قدر نفسه ويمتدحها.
 "وهو كذلك أن يكون لإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله ومثاله قوله تعالى:
 ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (40) [الإسراء:
 40]. وقوله عز وجل: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) ﴿
 [الصفات: 154]. "فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل
 العظيم وإذا قدّموا الاسم في هذا صار الإنكار في الفاعل ومثاله قولك للرجل قد انتحل
 شعرا: أنت قلت هذا الشعر؟ كذبت لست ممن يحسن مثله، أنكرت أشعرا: أنتقائل ولم
 تنكر الشعر" (1)

"فإن بدأت بالاسم فقلت: أنت تفعل؟ أو قلت: أهو يفعل؟ كنت وجهت الإنكار إلى
 نفس المذكور، وأبيت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل، وممن يجيء منه وأن يكون بتلك
 المثابة. تفسير ذلك أنك إذا قلت: أنت تمنعني؟ أنت تأخذ على يدي؟ صرت كأنك
 قلت: إن غيرك يستطيع منعي والأخذ على يدي ولست بذاك، ولقد وضعت نفسك في غير
 موضعك. هذا إذا جعلته لا يكون منه الفعل للعجز ولأنّه ليس في وسعه، وقد يكون أن
 تجعله لا يجيء منه؛ لأنّه لا يختاره ولا يرتضيه وأن نفسه نفس تأبى مثله وتكرهه ومثاله أن
 تقول: أهو يسأل فلاناً؟ هو أرفع همة من ذلك أهو يمنع الناس حقوقهم؟ هو أكرم من ذاك،
 وقد يكون أن تجعله لا يفعله لصغر قدره وقصر همته، وأنّ نفسه نفس لاتسمو وذلك قولك:
 أهو يسمح بمثل هذا؟ أهو يرتاح للجميل؟ هو أقصر همة من ذلك وأقل رغبة في الخير مما
 تظن" (2)

(1) الجرجاني "دلائل الإعجاز"، ص 90

(2) المصدر السابق، ص 9291

في هذا النص ثمة معنى واحد هو النفي أو الإنكار على ما بينهما من فرق إذ النفي أعم من الإنكار فكل إنكار نفي وليس كل نفي إنكاراً فالنفي قد يأتي وحده معنى مجرداً، وقد يقترن به أكثر من عمل. وهنا المقصود ليس مجرد النفي وإنما المقصود المعنى الآخر المقترن به، فالنفي في هذه الحال يكون معنى أول أو عاماً، والمعنى الآخر معنى ثانياً أو خاصاً. فالتركيب الاستفهامي قد يكون واحداً، ولكن معناه يتغير بحسب تغير سياق المقام وحال المخاطب:

1. فقد يكون الفعل ليس في مقدور المخاطب فتنكر عليه القيام به لعجزه عن ذلك المعنى المراد/ التّعجيز أي أن تنسب المخاطب إلى العجز عن أداء الفعل.

2. وقد تريد الرفع من شأن المخاطب/ التعظيم فتنكر اقترافه مثل هذا الفعل، وهنا ينبغي أن يكون المخاطب ذا مكانة رفيعة؛ بحيث يظن أنه لا يأتي مثل هذا الفعل الحقير أو القبيح.

3. وقد يكون المراد تصغير قدر المخاطب وتقصير همته أي أن تنسبه إلى صغر القدر وقصر المهمة/ التحقير فتنكر أن يأتي مثل هذا الفعل العظيم الجليل.

كذلك يلاحظ أنّ الاستفهام حين ينزاح إلى الدلالة على الإنكار بنوعيه الإبطالي والتوبيخي قد يكون إنكاراً لأمر في الماضي أو المستقبل تقدّم. من ناحية التركيب. الفعل أو تقدّم الاسم وبهذا يكون لنا أسلوبان للإنكار بقسميهما: الأول: وهو للماضي (أفعلت؟ وأنت فعلت؟) والثاني: وهو للمستقبل: (أتفعل؟ وأنت تفعل؟).

المبحث التطبيقي

هـ/ نماذج إجرائية:

إن أسلوب الاستفهام حين يخرج عن محتواه القضوي إلى معنى آخر تداولي تقتضيه طبيعة العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب. يمكن النظر إليه على أنه من الاستلزام الحوارية الذي

يعدّ مفهومًا مركزيًا في التداوليّة، كما يمكن النظر إليه بوصفه أسلوبًا يتضمن معنيين: معنى مباشرًا غير مراد لذاته ومعنى غير مباشر مرادًا. كذلك يمكن أن تطبّق عليه مقولة "المعنى" ومعنى المعنى" ومقولة المنطوق والمفهوم؛ الأمر الذي يعني أن أسلوب الاستفهام قابل لأن يحلّل وفق كل هذه المقاربات التي تبدو تنوعًا دلاليًا على إجراء واحد. ولما كانت طبيعة البحث لا تسمح برصد كل البنى الاستفهامية الواردة في القرآن الكريم فإننا سنكتفي بتحليل بعض هذه البنى تحليلًا تداوليًا بوصفه منهاجًا يغني عن استقصائها جميعًا.

1/ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53)﴾ [سورة الاعراف : 53]

إن المعنى المعبر عنه بالاستفهام هو التّمتّي وهو معنى يعبر عنه بأدوات مخصوصة أهمها (ليت) فالمعنى الأول المباشر هو طلب شفعاء يشفعون لهم والرجوع إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ليعملوا صالحًا غير ما كانوا يعملون. وقد عبّر عن هذا المعنى بقوة إنجازية هي (هل) الدالة على الاستفهام، والمعنى غير المباشر المراد هو اقتضاء حالهم إيجاد شفعاء يشفعون لهم، والمعنى المستلزم من ذلك هو التّمتّي. وكلا الاستفهام والتّمتّي طلب غير أن التّمتّي طلب لا يستدعي حصول مطلوبه، وأن الاستفهام طلب يستدعي حصول مطلوبه إذا كان على حقيقته فبادروا إلى استخدام الاستفهام آملين في حصول مطلوبهم هارين من صيغة التّمتّي الصريحة (ليت) ظنًا منهم أنهم سيجابون إلى مطلوبهم. وهو تمزجٌ مزوجٌ بالحسرة والندامة وكل المشاعر التي تقبض النفس ؛ لأن السياق الذي باحوا فيه بهذا الشعور سياق أخروي مستقبلي لا رجعة فيه إلى الحياة الأولى حين وجدوا الحقّ الذي وعدهم به القرآن، وجاءت به الرسل في حياتهم الدنيا. المتكلّمون: الكافرون الجاحدون، حالتهم السابقة في الحياة الدنيا: النسيان والتكذيب بالحق الذي جاء به الكتاب العزيز وجاءت به الرسل، حالتهم الآنية:

الحسرة والندامة والأسف والضيق الشديد، ومقام القول : يوم القيامة. "ويمكن تأويل هذه الآية على دلالة التَّمَيُّ التي حملتها بنية الاستفهام بطرق مختلفة فالدلالة الأصلية للتركيب والدلالة المقصودة كلاهما طلب وهو معطى مهم في التحليل. والفرق هو بين طلب للفهم يقتضيه عمل الاستفهام وطلب لا طمع فيه يقتضيه عمل التَّمَيُّ. وهو ما يعني أنَّ الحركة الدلالية بين العاملين قامت على استعمال تركيب دال على الطَّلَب (هو الاستفهام) لا يدلُّ على محبوب أو مكروه ولا على مطموع فيه ولكن قرائن المقام والمقال تفيد تضمينه أن يكون المطلوب مرغوبًا فيه ذهنيًا غير قابل للتحقيق واقعيًا"⁽¹⁾

التعبير عن هذه الحال بصيغة الاستفهام الدالة على غير معناها الحرفي ولكن على التَّمَيُّ المختلط بكل مشاعر الضيق والحزني يؤكد ذلك كثافة الضمير الدال على المتكلمين (نا ثلاث مرات، ونون المضارع ثلاث مرات) الأمر الذي يستشف منه أن هذا الشعور صادر منهم إليهم، لازم لهم لا يتعداهم إلى غيرهم، فهو من الاستفهام الذي يتوجه به المتكلم إلى نفسه. إذن فالعبرة ليست بذكر المعنى المراد من صيغة الاستفهام وإنما بتشريح هذه الصيغة وما يحفَّ بها من ملابسات وصولاً إلى المعنى المقصود، ولإنجاز هذه المهمة لا بد من طرح الأسئلة الآتية: من يخاطب من؟ وهذا يحيل على طرفي الخطاب: المتكلم والمخاطب، وفيهم يتخاطبان؟ وهذا يحيل على موضوع الخطاب، وأين تخاطبا ومتى؟ وهذا يحيل على السياق التواصلي. ولماذا؟ وهذا يحيل على الغاية من التواصل. وكيف تم التَّخاطب؟ وهذا يحيل على الأسلوب الذي عبّر به عن المعاني المقصودة.

2/ ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (120) [سورة الأعراف : 120]

لنصل إلى المعنى المراد من هذا التركيب التَّحوي لا بد من فتحه على أطرافه الحاقّة به جميعاً فمن هو المتكلم؟: الشيطان، ومن هو المخاطب؟ آدم عليه السّلام، وما الغرض من

(1) د. شكري المبخوت "دائرة الأعمال اللغوية" دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2010م، ص212

إلقائه؟ لندرك الغرض من هذا الكلام لابدّ من التّعرف على العلاقة بين المتخاطبَيْن فنجدها علاقة قائمة على العداوة لا الصّداقة؛ لذا لا يمكن أن يكون الغرض إسداء النصّح أو الإرشاد، وإمّا هو الإغراء والتّزيين والخداع ليُخرج آدم عليه السّلام من الجنّة بوصفها السّياق المكانيّ الذي دار فيه هذا الحوار، وهذا جواب عن سؤال: أين كان هذا التّحاور بينهما؟. وكيف عبّر عن مراده؟ عن طريق الاستفهام بالأداة (هل) باعتبارها القوة الإنجازية التي سبقت محتواها القضوي المتمثل في: دلالة المتكلّم المخاطب على شجرة الخلد وملك لا يبلى أي: المعنى الظاهر الدال عليه هذا التّركيب الإسنادي وقيوده من المفعول به ومتعلقي الفعل، غير أنّ المعنى الضمني الذي لا تدلّ عليه صيغة التّركيب، والذي يقصده المتكلّم هو الإغراء والتّزيين والخداع الذي وقعنا عليه بالاعتماد على السّياق الكاشف لطبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب. القصد البعيد للشّيطان هو إخراج آدم من الجنّة كما أُخرج هو منها.

3/ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (72) [سورة الشعراء : 72]

لندرك العمل القوليّ المنجز بهذا الاستفهام، ينبغي أن نعرف طرفي الخطاب وموضوعه فنقول إنّ المستفهم: هو إبراهيم عليه السلام، والمستفهم: هو قومه، والمستفهم عنه: هو الأصنام التي يعبدونها يستفهمهم عن سماعها دعاءهم وعن نفعها وضرها وهو لا يقصد انتظار ردّ على سؤاله؛ لأنّه على علم تام بما يستفهم عنه؛ مما يعني أنه قد انزاح بالاستفهام عن مدلوله الاصطلاحي إلى مدلول آخر هو حجاجهم أي إقامة الحجة عليهم وهي حجة عقلية؛ لذلك أرى أن أسمّي هذا الاستفهام المنزاح عن أصله الموجه إلى المخاطب بالاستفهام الحجاجي؛ لأنّه يحاصر المخاطب ويوقعه في شركه بحيث يجعله بنفسه يكشف المقصود منه، ويقتنع هو نفسه بنفسه؛ ذلك لأنّ "الغاية من كل استفهام سواء أكان حقيقياً أو غير حقيقي تتمثل... في أن نفرض على المخاطب به إجابة محددة بمليها المقتضى الناشئ

عن ذلك الاستفهام فيتم بذلك توجيه دفعة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد⁽¹⁾ وقد أشار إلى هذه الوظيفة - الحجاج التي يضطلع بها الاستفهام ابن جني حيث يقول: "ونحو قول الله سبحانه: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا}؛ فكأنه قال: هل أتى على الإنسان هذا؟ وهذا كقولك لمن تريد الاحتجاج عليه: بالله هل سألتني فأعطيتك، أم هل زرتني فأكرمتك؟ أي: فكما أن ذلك كذلك فيجب أن تعرف حقي عليك وإحساني إليك.

ويؤكد هذا عندك قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَنَبِّئْنَا فُوقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}.

أفلا تراه . عز اسمه . كيف عدد أياديهِ عليه وألطفه له⁽²⁾

وقد ورد هذا النمط من الاستفهام كثيراً في القرآن الكريم معتمداً على أدلة حسية أو أدلة عقلية لإقناع المستفهم بالذي يدعى إليه أو إفحامه بغية التخلّي عن اعتقاده الخاطئ. "إنّ المعنى الثاني الزائد على أصل المعنى المستفاد من الاستفهام هو الذي يعمّق درجة الإقناع بالنتيجة التي يتوجه إليها الملفوظ. إنّ البحث في كيفية اشتغال مبدأ الأنفع بلاغياً وحجاجياً من شأنه أن يدفعنا إلى البحث في الغاية من تطبيق المتكلم له (المبدأ) في كلامه وهذه الغاية هي دائماً تبليغ المعنى... والحاجة به أي أنّها في نهاية الأمر تقوية التوجيه نحو النتيجة(ن) التي يروم الخطاب تحقيقها"⁽³⁾

(1) عبد الله صولة الحجاج في القرآن دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007م، ص 427

(2) ابن جني "الخصائص" دار الكتب المصرية، بدون، ص462/2

(3) عبد الله صولة "في نظرية الحجاج" ص100.99

4/ ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (72)

سورة هود : 72]

وشرط هذا المعنى/التعجب المنزاح عن الاستفهام الطلبي أنّ ما بعدها واقع لا محالة، وأن علة تعجبها: أنها عجوز لا تتصور أن تلد في هذه السن، وأن بعلمها قد بلغت الشيخوخة، فهي قد عبرت عن هذا الشعور الذي انتابها بعد سماعها البشري، دون التوجه به إلى غيرها فهو بوح ذاتي أعلنت عنه بطريق الاستفهام. ولعل ما يدلّ على ذلك كثافة الضمائر التي تحيل على المتكلمة "الضمير المستتر في (ألد) والضمير البارز (أنا) وياء المتكلم في (بعلي)" واعلم أنّه ليس شيء يخرج عن بابيه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابيه ملاحظاً له، وعلى صدد من الهجوم عليه؛ وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء... فلما كان السائل في جميع هذه الأحوال قد يسأل عما هو عارفه أخذ طرفاً من الإيجاب لا السؤال عن مجهول الحال" (1)

5/ ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ

هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) [سورة الشعراء : 91-93]

للكشف عن المعاني التي يحيل عليها هذا الخطاب الاستفهامي دعونا نشرح الجوّ العام الذي يكتنف عناصره فنجد أنّ السياق الزماني سياق مستقبلي أخروي في جانبه الشّمالي حيث تُبرز الجحيم وتُكشف لأصحابها، وهناك المستفهم المضمّر في الفعل المبني للمجهول (قيل) للعلم به وهم الملائكة، والمستفهمون هم الغاؤون وكلاهما يمثلان طرفي الخطاب الاستفهامي، ثم تتوالى بنيتان استفهاميتان الأولى بـ (أين) والثانية بـ (هل) والمستفهم عنه هو

معبودهم وآلهتهم الباطلة ونصرهم عابديهم أو انتصارهم لأنفسهم. هذا السياق العام يوحي بأن الاستفهام ببنيته خارج عن مدلوله الاصطلاحي ليدلّ على النفي . نفي وجودهم ونفعهم وحمايتهم لعابديهم من النار التي أعدت لهم، ونفي لنصرهم إياهم أو لانتصارهم لأنفسهم، ولعل السؤال عن شيء بـ (أين) يتضمن أحياناً غياب هذا الشيء في المكان الذي أُلقي فيه السؤال. وكلاهما - الاستفهام والنفي معنى نحوي والنفي يقودنا إلى المعنى المقامي وهو التبكيث.

5/ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2)﴾ [سورة الصف : 2]

يبدو أن المعنى المراد من الاستفهام هو الإنكار ؛ لأن المستفهم قد ناداهم بصفة الإيمان؛ ولأنّ منافاة القول للفعل تقتضي الإنكار مما يعني أن ما بعد أداة الاستفهام واقع وفاعله ملوم؛ لأنه فعل لا يجوز في حق من يتّصف بالإيمان. فهذا الخطاب الاستفهامي قائم بين الله تعالى وبين المؤمنين وكون الله هو المستفهم هذا يقتضي أنّ الاستفهام ليس على حقيقته وإنما خرج إلى معنى آخر هو الإنكار على قولهم ما لا يفعلون؛ لأنّه مما يناقض صفة الإيمان. ويستشفّ من الإنكار معنى آخر هو التوبيخ مما يعني أن هذه البنية اللغويّة تنطوي على ثلاث طبقات من المعنى: الاستفهام والإنكار والتوبيخ وهذان الأخيران يتوجه بهما المتكلم إلى المخاطب.

6/ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ (71)﴾ [سورة الفصص : 71]

في الآية استفهامان: الأول (أرأيتم) وهو عند الزمخشري بمعنى أخبروني أي بمعنى الأمر، وهو عند تمام بمعنى (ياترى) وعندى أنه بمعنى (تصوروا)، والثاني (من إله غير الله) وهو بمعنى : لا يوجد غير الله من يقدر على ذلك، أي: لا إله غير الله يستطيع فعل ذلك أي النفي والإنكار لأي إله آخر غير الله. وهو استفهام يتضمن حجاجاً؛ لأنّ المقام يقتضيه.

ما بعد الاستفهام الأول يمثل حجة مفترضة ولكنها ليست بعزيمة على الله، والاستفهام الثاني يمثل نتيجة تتمثل في أنّ الله وحده من يقدر على ذلك الفعل الكوني مما يعني التوجيه إلى وحدانية الله التي تنفي جميع الآلهة المدّعاة مع الله أو من دون الله، وهو استفهام إنكاري مغلق يلزم المخاطبين بإجابة واحدة هي أنّ القادر على جعل الليل عليكم سرمدًا إلى يوم القيامة هو نفسه الذي يأتيكم بضياء فهذان الفعلان الكونيان لا يقدر عليهما إلا هو، فإن بنية الاستفهام الإنكاري "تحافظ على الإلزام بالإجابة دون الالتزام بعدم اليقين بل إنّ المستفهم المنكر يعتقد في خلاف المحتوى القضوي، ولكنه يترك للمخاطب التصريح به وتقريره ليكون الإلزام من جهتين: جهة الإجابة بحسب قواعد المحادثة وآدابها، وجهة تنبيّ وجهة نظر المتكلم التي لم يعرضها مثبتة أو على سبيل توكيد الإثبات حسب ما يقتضيه مقام الإنكار"⁽¹⁾، فالمعاني في هذه الآية متناصلة فمن الاستفهام إلى النفي إلى الإنكار إلى وحدانية الله بوصفه المعنى النهائي المقصود في مقام الحجاج.

7/ ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (22) [سورة يس : 22]

للتعرّف على المعنى الذي يدلّ عليه هذا الاستفهام ينبغي التعريف بالسياق الخارجي الذي دارت فيه المحادثة وبطرفيها. فهي محادثة بين متكلم هو حبيب بن إسرائيل التجار صاحب يس وبين مخاطب هو قومه الكفرة يدعوه إلى اتباع الرّسل الداعين إلى عبادة الله الأحد، فالسياق سياق دعوة ومناصحة وترغيب. أما بنية الاستفهام فأداته الموظّفة فيه هي (ما)، ويلاحظ فيها هيمنة ضمير المتكلم (الياء مرتين، والضمير المستتر في الفعل (أعبد). وهذه الصّيغة (مالي) كثيرًا ما وردت في القرآن للدلالة على الإنكار والتعجب فكأنما هو إنكار تعجبي من ألا يعبد الذي فطره مع أنّه إليه راجع، فالرجوع إليه حجة لأن يعبد الذي فطره بوصفها نتيجة. وإذا وضع المتكلم قوله . كما ذهب إليه الزّحشري . موضع (ومالكم لا

(1) شكري المبخوت "الاستدلال البلاغي"، ص 199

تعبدون الذي فطرکم) الکشاف 893 بدلیل قوله "وإليه ترجعون" فإن قوله يكون حينئذٍ على سبيل التعريض بهم وحجاجة إياهم.

8/ ﴿أَلَيْسَ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الدخان : 13]

إن المستفهم هو الله مما يستوجب خروج الاستفهام على مقتضى ظاهره إلى معنى آخر هو استبعاد ذكراهم بوصفها المستفهم عنه، والمستفهم هم مشركو قريش المتحدث عنهم بضمير الغائب المتصل (هم). وجملة الحال الفعلية تأتي قرينة داعمة لمعنى الاستبعاد إذ مجيء رسول الله وما ظهر عليه من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات أوجب لإدكارهم من كشف الدخان. والاستبعاد يقتضي أن ما بعد أداة الاستفهام غير واقع ووقوعه ليس منتظرا أو متوقعا؛ لأنه مستبعد من الأساس الأمر الذي يعني أن الاستبعاد معنى يتوجه به إلى المستفهم عنه (الذكرى) لا إلى المستفهم/المخاطب.

9/ ﴿أَتَأْخُذُونَهُ مُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [سورة النساء 20]

إن أداة الاستفهام المستخدمة هي (كيف)، والمستفهم هو الله علام الغيوب مما يوجب خروج الاستفهام عن معناه الاصطلاحي، والمستفهم هو المؤمنون، والمستفهم عنه هو أخذهم الصّدق الذي دفعوه إلى أزواجهم. هذه هي أركان الاستفهام. فما هو الغرض المقصود من هذا الاستفهام؟ الآية جاءت في سياق تحرير المرأة في الإسلام من أخلاق الجاهلية، ومن الظلم الذي كان واقعا عليها، وفي سياق الزواج بامرأة أخرى بدلا من الأولى إذ قررت الآية السابقة على آيتنا هذه النهي عن أخذ مهر الأولى ولو كان قنطاراً أي مالا كثيراً، ولما كان النهي قد صرح به في الآية السابقة فإن الغرض من الاستفهام هنا لا يمكن أن يكون النهي وإنما الاستنكار على أخذ المهر وجملة الحال بعد تعضّد هذا المعنى يستنكر عليهم أخذ المهر مع هذه الحال من العشرة الطويلة وإفضاء بعضهم إلى بعض والاتحاد والامتزاج بينهما.

10/ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا

هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) ﴿﴾ [سورة الاعراف 187]

إنّ عناصر هذا الخطاب الاستفهامي تتمثل في كفار قريش بوصفهم المستفهم، والنبي الكريم باعتباره المستفهم، ومرسى الساعة بوصفه المستفهم عنه، و(أَيَّان) بوصفها أداة الاستفهام وهي أداة تختص بالمستقبل لذا فهي يسأل بها عن الزمان وتستخدم للتفخيم. ويبدو أن الاستفهام قد خرج عن مدلوله الحقيقي ليشير إلى استبعاد مرسى الساعة ومنتهاتها أو استبطاء مجيئها فكأنهم يستعجلونها مما يعني أن المستفهم يقصد باستفهامه المستفهم عنه، واستعجال كفار قريش مجيء الساعة أشار إليه القرآن في كثير من آياته. وأرى أنّ (أَيَّان) أشبه بـ (أين) بزيادة التضعيف والألف وتطبيق قاعدة: كل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى فإنها يمكن أن تستخدم للمكان العظيم الفخيم إلى جانب استخدامها للزمان، وما يدلّ على ما أذهب هذه الآية نفسها إذ كلمة (المرسى) صيغة ودلالة تحيل على المكان.

11/ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214) ﴿﴾ [سورة البقرة : 214]

سياق الآية استبعاد دخول الجنة دون ابتلاء ومغالبة لقوى الكفر والاستكبار، وأن هذه المواجهة سنة كونية يمحّص بها المؤمنون في الأزمنة كافة، مذكّره بمثل الذين مضوا من ابتلوا بأساً وضراً وزلزلة. أما مكونات الاستفهام فهي: المستفهم وهو الرسول وصحبه، والمستفهم عنه هو نصر الله، وأداة الاستفهام هي (متى)، ويلاحظ أن هذا الاستفهام قد خلا من المستفهم مما يحتم توجيه المستفهم به إلى المستفهم عنه (نصر الله) استبطاء له أو استعجالاً فهو إذن استفهام أنجز به عمل لغوي أو عبّر به عن شعور خالج النفوس استبطاء وأملًا ورجاء وتطلعًا لنصر الله وليس استبطاء وحده.

خاتمة:

حاول هذا البحث تقديم مقارنة تداوليّة لأسلوب الاستفهام من خلال نماذج قرآنية. وقد اقتضت تلك المقاربة قبلاً تناول الإنشاء بوصفه مفهوماً يندرج تحته أسلوب الاستفهام، ثم تناول الاستفهام مفهوماً وأركاناً وأدواتٍ ومطلوباً به وأصنافاً، حيث صنّف صنفين: حقيقي وغير حقيقي، وصنّف غير الحقيقي باعتبار توجيهه إلى: ما يتوجه به المتكلّم إلى نفسه، وما يتوجه به إلى المخاطب. وقد أقيمت دراسة الاستفهام في المنحى الإجرائي على ثلاثة أبعاد: البعد التركيبي والبعد التداولي والبعد الدلالي، مع الانفتاح على الحثيات الحافّة ببنية الاستفهام كطريقه: المستفهم والمستفهم، وطبيعة العلاقة الكائنة بينهما، والسياق المكاني الزماني، والغرض المبتغى من المستفهم، لا سيما إذا انزاح الاستفهام عن معناه الاصطلاحي، حيث تبين أنّ الأعمال اللغويّة التي تنجز ببنية الاستفهام الواحدة طبقات مترابطة، بحيث يوصّل كل مدلول إلى الآخر، فمن مدلول الاستفهام إلى مدلول التثبيت إلى مدلول الفخر وهكذا.

النتائج:

أن الاستفهام يعد أصل التواصل اللغوي، حيث كان الإنسان الأول يتعرّف به العالم وأشياءه.

أن الأعمال اللغويّة المنشأة بالاستفهام يتوجه بها إلى مكوناته جميعاً.

أن الاستفهام المتوجه به المستفهم إلى نفسه وإلى المستفهم عنه يدخل في دائرة البوحيات من أفعال الكلام التداوليّة.

أن بنية الاستفهام الواحدة في القرآن الكريم قد تحتمل باختلاف حال المخاطب طبقات من الأعمال اللغويّة.

أن شرط خروج الاستفهام على مقتضى ظاهره في القرآن الكريم معرفة المخاطب بأن المتكلم عالم بما يستفهم عنه.
أن أسلوب الاستفهام صالح لأن يعالج في القرآن الكريم بكل مقولات التداولية من استلزام حوارى وأفعال كلام.
أن الاستفهام في القرآن الكريم أسلوب حجاجي وإقناعي بامتياز.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- 1- ابن الأثير "المثل السائر" دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001
- 2 - ابن جني "الخصائص" دار الكتب المصرية، بدون ت، د.ط
- 3- ابن هشام "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" دار الطلائع، القاهرة، بدون
- 4- ابن هشام "شرح شذور الذهب" مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، د.ط، 1961
- 5- أبو هلال العسكري "الفروق اللغوية" دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006م.
- 6- بان الخفاجي "مراعاة المخاطب في النحو العربي" دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م.
- 7- التفنازاني "المطول" دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007
- 8- تمام حسان "البيان في روائع القرآن" عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2000م.

- 9- توفيق الفيل "بلاغة التراكيب" مكتبة الآداب، القاهرة، بدون.
- 10- الجرجاني السيد الشريف محمد علي الجرجاني "التعريفات" شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، د.ط، 1938م.
- 11- خالد ميلاد "الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة" المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001م.
- 12- ختام جواد "التداولية - أصولها واتجاهاتها" دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2016م.
- 13- الزمخشري "تفسير الكشاف" دار المعرفة، بيروت، ط3، 2009م.
- 14- السكاكي "مفتاح العلوم" دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2011م.
- 15- سيبويه "الكتاب" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.
- 16- السيد أحمد الهاشمي "جواهر البلاغة" بيروت . لبنان، 2010
- 17- شكري المبخوت "الاستدلال البلاغي" دار المعرفة، تونس، ط1، 2006م
- 18- شكري المبخوت "دائرة الأعمال اللغوية" دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2010م.
- 19- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني "البلاغة العربية" دار القلم، دمشق، ط1، 1996م.
- 20- عبد السلام محمد هارون "الأساليب الإنشائية في النحو العربي" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2001م.
- 21- عبد القاهر "دلائل الإعجاز دار المعرفة، بيروت، ط1، 1994م
- 22- عبد الله صولة "الحجاج في القرآن" دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007م
- 23- عبد الله صولة "في نظرية الحجاج مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011

- 24- فاضل صالح السامرائي "معاني التَّحو" شركة العاتك، القاهرة، ط2، 2003م.
- 25- فاضل مصطفى الساقى "أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2008م.
- 26- فضل حسن عباس "البلاغة فنونها وأفنانها . علم المعاني "دار الفرقان، عمان، 1989
- 27- القزويني "الإيضاح في علوم البلاغة" دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2010م
- 28- محمد الشاوش "أصول تحليل الخطاب" المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001
- 29- محمد محمد أبو موسى "دلالات التراكيب "مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1987
- 30- مسعود صحراوي "التداولية عند العرب" دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م.